المحاضرة الخامسة/ مدرسة فرانكفورت والنقد الثقافي:

سنحاول في هذه المحاضرة إكمال ما سبق في تقديم روافد النقد الثقافي أو جينالوجيا النقد الثقافي، ونقف هذه المرة عند رافد آخر وهو من أهم الروافد التي استقى منه النقد الثقافي مقولاته التحليلية، وهذا الرافد متمثل في مدرسة فرانكفورت أو ما يطلق عليه بالنظرية النقدية

ثالثا: مدرسة فرانكفورت:

1- النشأة والتطور:

مدرسة فراكفورت أو **النظرية النقدية** أو **مركز البحوث الاجتماعية** كلها تسمية واحدة جمعت مجموعة من المفكرين تحت سقف واحد على مر أجيال بلغ عددها ثلاثة أجيال، وقد ظهرت هذه المدرسة في مدينة فرانكفورت الألمانية، ولم تكن في البداية تحت هذا الاسم ففي البداية سرى الاتفاق بين مؤسسيها الأوائل على تسمية هذا المركز بـ: **مركز البحوث الاجتماعية**، وقد حاول هذا المركز معالجة قضايا ترتبط بالمجتمع الألماني في تلك الفترة، وهو الرهان الذي جمع مؤسسي الجيل الأول لهذه النظرية، **فالفكر النقدي للواقع السياسي والاجتماعي** هو الأساس الذي انطلق منه هؤلاء وبطبيعة الحال المقصود هنا كلا من **هوركهايمر وتيودور أدورنو وهيربيرت ماركيوز**، وبالتالي نجد كل محاولاتهم النقدية تتقاطع في كثير من القضايا المشتركة المرتبطة بالدرجة الأولى **بالهيمنة والتشيؤ** ويتناول كل واحد منهم هذه المفاهيم من تقليد معرفي موزع بين **الماركسية والفرويدية والهيغلية الكانطية**، كما قدمت هذه النظرية كما يرى ذلك رائد مدرسة فرانكفورت في الجزائر بامتياز كمال بومنير نقدا جذريا لمشروع التنوير في الثقافة الغربية ويبدو هذا جليا وواضحا في كتاب **هوركهايمر وتيودور أدورنو جدل التنوير** وفي هذا الأمر يقول «لقد قامت النظرية النقدية منذ نشأتها في الثلاثينيات من القرن العشرين بنقد جذري

لمشروع التنوير بما هو رمز الحداثة الغربية، هذا ما يظهر بصورة جلية في جدل التنوير الذي كتب بالتشارك بين ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو، ويعتبر هذا الكتاب بإجماع كل الباحثين المختصين في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت أهم نص فلسفي ممثل لهذه المدرسة وخاصة لجيلها الأول»[1].

انقسمت مدرسة فرانكفورت إلى ثلاثة أجيال اختلف الطرح النقدي عند كل جيل على حساب الآخر، وقد مثل الجيل الأول كلا من ماكس هوركهايمر وفريديريك بولوك وفرنز نيومان وقد كانا هذين الأخيرين هما صاحبا فكرة تأسيس المركز في البداية، والتحق بهذا الجيل فيما بعد كلا من تيودور أدورنو ممثلا في كتابه السابق الذكر وهربيرت ماركيوز الذي كتب كتابه ذائع الصيت **الانسان ذو البعد الواحد** أما الجيل الثاني فقد تمثل في انجازات المفكر يورغن هابرماز صاحب مفهوم **العقل التواصلي** و ثلة من المفكرين أبرزهم كلاوس أوفه وكارل أوتو آبل، أما الجيل الثالث فهو ممتد لغاية اليوم ويمثله على أحسن وجه المسؤول الأول عن هذا الإرث النظري **أكسيل هونيت** الذي أعاد النظر في كثير من المفاهيم على رأسها مفهوم **التشيؤ والهيمنة.**

شكل نقد الفلسفة الاجتماعية في فكر هوركهايمر البذرة الأولى التي بدأ منها في محاولته لإرساء نظرية نقدية لهذه المدرسة، وقد شرع منذ البداية في نقد الفلسفة الوضعية بوصفها نظرية في المعرفة متوصلا في ذلك كما يقول **توم بوتمور** في كتابه **مدرسة فرانكفورت** إلى مجموعة من النتائج أبرزها أن هذا النوع من المعرفة يتعامل مع البشر المفعمين بالنشاط والحيوية بوصفهم حقائق وأشياء مجردة، كما أنها تتصور العالم كمعطى مباشر فقط في التجربة وهذا يجعلها لا تمير بين المظهر والجوهر، كما أنها تقيم تمييزا

---

[1] – كمال بومنير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت–من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيت–، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص11.

مطلقا بين الحقيقة والقيمة ومن ثم فإنها تفصل المعرفة عن المصالح البشرية[2]، وهذه الاشارات شكلت فيما بعد الحجر الأساس في كتابه جدل التنوير، فجدل التنوير يناقش بقوة وضعية ومكانة الفرد في المجتمعات الغربية وقد كان مليئا بالنزعة التشاؤمية التي عرف بها هوركهايمر وأدورنو في كتاباتهم النقدية، فمشروع الحداثة والتنوير الذي حمل في بذوره صفات التسامح والعدالة والتحرر لم يفي بوعده ولم يعد قادرا على تحرير الانسان، فقد بلغت النظم السياسية الشمولية التوليتارية كالنازية في ألمانيا مع هتلر والفاشية في إيطاليا مع موسليني والسامية مع اليهود ذروتها في البطش بحرية الانسان فعوض أن يسود السلام في تلك اللحظات التاريخية الحاسمة في تاريخ أروبا انتشر الطغيان والظلم واللعب بحرية وكرامة الانسان، وبدل أن يصنع العقل الحداثي السكينة صنع عقله الأداتي المستوحى منه القنبلة الذرية التي قضت على الانسان في هيروشيما ونكزاكي وفي هذا الصدد يقول هوكهايمر وأدورنو في كتابهما جدل التنوير «إن ما اقترحنا القيام به فعلا، لم يكن أقل من محاولتنا أن نفهم، كيف أن الانسانية بدل أن تلتزم بشروط إنسانية حقة، سرعان ما راحت تغرق في شكل جديد من أشكال البربرية»[3].

لم يعتمد هوركهايمر في تحليلاته النقدية للمجتمعات الغربية على الماركسية كما كان سلفه من قبل، بل كان طرحه مغايرا تماما وانطلق من علم النفس والظاهراتية، فقد أراد أن ينفتح على آفاق معرفية جديدة في عصره، بدل الاحتفاء بالماركسية التقليدية، لكن مع ذلك «حافظ هوركهايمر على كثير من افتراضات سلفه الماركسية مع إدخال تغييرات دقيقة عليها، ففي خطابه الافتتاحي وبخلاف خطاب جرونبرغ لم يقل أن كل تعبير من تعابير حياة المجتمع هو انعكاس للحالة الاقتصادية، بل قلب هذا الزعم بما قل ودل، فقد أعلن أنه من الخطأ أن نعتقد أن الأفكار أو المضامين الروحية تقتحم

---

[2] – توم بوتمور: مدرسة فرانكفورت، تر: سعد هجرس، دار أويا، ليبيا، ط2، 2004، ص44.

[3] – ماكس هوركهايمر، تيودور أدورنو: جدل التنوير–شذرات فلسفية–، تر: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2006، ص 13.

التاريخ وتحدد فعل الكائنات البشرية، كما أنه من الخطأ أن نعتقد أن الاقتصاد هو الواقع الحقيقي الوحيد»[4]، وبعد هذه المحاولات التي شكلها هوكهايمر وغيره من مثقفي فرانكفورت جاءت النازية التي كانت بمثابة إعلان عن انتهاء صلاحية هذه المدرسية وذلك لسببين كما تقول ثريا بن مسمية الأول المثل في توجهها الماركسي في معالجة قضايا المجتمع سواء المرتبطة بالمجتمع البرجوازي أو البنى الثقافية، والسبب الثاني يعود للأصول اليهودية لمؤسسي هذه المدرسة، ولهذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية ملجأهم من أجل مواصلة نشاطاتهم الثقافية، كون أمريكا في تلك الفترة كانت تعكس في ثقافتها التعددية والحرية التي افتقدتها أوروبا في تلك الفترة نتيجة سيطرة النازية والفاشية، وقد سبب هذا المنفى تغييرا في دراسة مواضيعهم فتحولوا من دراسة المجتمع البرجوازي إلى دراسة «المجتمع الرأسمالي الذي رأوا نمط صعوده الجديد في الولايات المتحدة، خاصة مع تنامي المعجزة الاقتصادية التي كونت رأسمالية قوية، حالت دون فعالية الطبقة العاملة في تحقيق أهدافها، وهو ما جعل المدرسة تتجه نحو قضايا عديدة كقضية السيطرة الشاملة، والقضاء على قيمة الفرد، والقهر التقني وصناعة الثقافة»[5].

02- أعلامها ومؤسسيها:

في هذا العنصر سنحاول تقديم سيرة ذاتية لأهم أعلام ومريدي هذه المدرسة وسنبدأ من أعلام الجيل الأول وذلك لأن التعريف بإعلامها سيساعد الطالب على الإلمام نوعا ما بما قدمته هذه النظرية في مجال العلوم الاجتماعية، وكذا سيمكنه من معرفة بعض الأعلام الذين استفاد منهم النقد الثقافي وخصوصا تيودور أدورنو الذي شكلت مقاله صناعة الثقافة بابا واسعا ولج من خلاله نقاد الثقافة إلى مختلف النصوص التي

---

[4] – ثريا بن مسمية: مدرسة فرانكفورت–دراسة في نشأتها وتياراتها النقدية واضمحلالها–، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العراق، ط1، 2020، ص28.

[5] – ثريا بن مسمية: مدرسة فرانكفورت–دراسة في نشأتها وتياراتها النقدية واضمحلالها–، ص32.

تعكس في أجندتها الثقافية مفاهيم التشيء وكيف تحول الإنسان في ظل سيطرة الرأسمالية والليبرالية بمختلف ألوانها إلى سلعة ثقافية يتم التحكم بها وفق أيديولوجيا تسير مفاهيمه الخاصة، وفي الجيل الأول سنبدأ بماكس هوركهايمر ونعرج على تيودور أدورنو ونختم بهربيرت ماركيوز.

1-1- ماكس هوركهايمر:

وُلد ماكس هوركايمر في 14 فبراير 1895 بمدينة شتوتغارت وهو ابن أحد الصناعيين اليهود؛ فهو سليل عائلة يهوديّة ثريّة، وبتأثير عائلته ترك دراسته في المدرسة المتوسّطة وكان عمره في حدود السادسة عشر ليعمل بمصنع النسيج الذي هو ملك أبيه، ولقد التقى بفريدريك بولوك في عام 1912 وتواجدا معًا في باريس ثمّ في بروكسل، وقبل الحرب العالمية الأولى عاش في مانشستر، وفي عام 1917 شارك في الحرب وأُصيب فيها، ولقد أنهى دراسته الثانويّة مع صديقه بولوك وانخرطا من 1919 إلى 1922 في دراسة الفلسفة، وعلم النفس والاقتصاد السياسي بجامعة ميونخ. ثم انتقلا بعد ذلك إلى جامعة فرَانْكِفُورْتْ ليدرس هو وزميله بولوك تحت إشراف هانز كورنيلوس 1863-1947.

ولقد قرأ هوركايمر لكثيرٍ من الفلاسفة، نجد من بينهم الفيلسوف شوبنهاور وكذلك تولستوي ومن بعدهم ماركس وإنجلز وفي عام 1922 ناقش أطروحته للدكتوراه وكان عنوانها **نقد الحكم عند كانط: التوسّط بين الفلسفة العمليّة والفلسفة النظريّة** تحت إشراف هانز كورنيلوس. وعن طريق وساطة صديقه بولوك بدأ التدريس عام 1926 وفي سنة 1930 عُيّن أستاذًا للفلسفة المجتمعية بجامعة فرانكفورت، وفي السنة نفسها أصبح مديرًا للمعهد خلفًا لجرونبرغ، وفي عام 1932 أسّس مجلة معهد الأبحاث الاجتماعية. اضطرّ هوركايمر إلى مغادرة ألمانيا عام 1933 نظرًا لوصول هتلر إلى سدّة الحكم؛

فهاجر إلى جنيف وباريس ونيويورك، واستمرّ في نشر مجلّة للبحث الاجتماعي، وفي الإشراف على نشر دراسات في الفلسفة والعلم الاجتماعي وعندما تحوّل معهد الأبحاث المجتمعية إلى جنيف بسويسرا اتخّذ اسمً فرنسياً هو «**الشركة الدولية للأبحاث الاجتماعية**» التي امتدّ إشعاعها لفرنسا وانجلترا.

أعاد المعهد بعث نشاطه في الولايات المتحدة الأميركية بنيويورك سنة 1934 واستقرّ هوركايمر مع كلٍّ من ماركيوز ولونثال وبولوك وفيتفوجل و ايريك فروم ثمّ انتقل إلى لوس أنجلوس بولاية كاليفورنيا، وهناك تعاون مع تيودور أدورنو على إصدار كتابهما جدل التنوير واستمرّ في تحرير مجلّة معهد البحث المجتمعي تحت اسمها الجديد **دراسات في الفلسفة والعلم الاجتماعي** وفي عام 1949 عاد إلى فرانكفورت وفي عام 1950 أعاد فتح معهد البحث الاجتماعي. واشتغل هوركايمر للسنوات 1951-1953 رئيسًا لجامعة فرانكفورت واستمرّ في الوقت نفسه في التعليم الجامعي حتى تقاعد في منتصف الستينات في 1958 ومن ثمّ زار أميركا مرتين: الأولى عام 1954 والثانية عام 1959، وذلك ليحاضر في شيكاغو، وظلّ رمزًا ثقافيًّا متميّزًا حتى وفاته في نورمبرغ بتاريخ 7 يوليو 1973، ودُفِنَ في المقبرة اليهوديّة في برن في سويسرا.

من بين أهم كتبه التي كتبها تمثلت في مايلي: كتب النظرية التقليدية والنظرية النقدية 1937م، وكتاب خسوف العقل 1941م، وكتاب بين الفلسفة والعلم الاجتماعي ظهر في مجلد 1930-1939. [6]

[6] – ينظر: ثريا بن مسمية: مدرسة فرانكفورت–دراسة في نشأتها وتياراتها النقدية واضمحلالها–، ص ص 37-38-39.